

الإسماعيليون النزاريون والإرهاب ظلمهم المؤرخون والمستشرقون

فتحي فطوم



كلما ظهر في الأفق جديد، أو طرح الآخرون مفهوماً أو مصطلحاً لتوصيف حالة ما، أو تشكلت حركة تحمل أفكاراً خارجة عن نطاق العادة والمألوف. أسرع البعض إلى تقليب صفحات التاريخ، للبحث عن حالة مشابهة أو متقاربة؛ لتنتقل أقلامهم في تسويد الصفحات. إما مدحاً أو قدحاً، بقصد أو دون قصد، دون النظر إلى اختلاف الظروف والأحوال والرؤية وتبدل المفاهيم. في السنوات الأخيرة برز إلى النور الوجود الحديث عن الإرهاب، عبر وسائل الإعلام المختلفة، وارتفعت وتيرة هذا الحديث بعد عمليات التفجير في نيويورك وواشنطن. يوم الثلاثاء ١١ أيلول سبتمبر..

ولكي تكون الأمثلة عن الإرهاب من تاريخنا في العصر الوسيط يخرج إلينا أحد المثقفين بمقالة عن الإرهاب، ويطل آخر - عبر شاشة التلفاز - ضارباً أمثلة من التاريخ الإسلامي وتنتشر مجلة عربية عريقة زاوية صغيرة في باب (تراث عربي) شيئاً عن الإرهاب. وكلها تشير بإصبع الاتهام إلى الحسن الصباح، مؤسس الدولة النزارية في قلعة الموت. قبل أن نسوق الأمثلة التي تتهم الحسن والدولة الإسماعيلية النزارية بالإرهاب، نتوقف قليلاً عند هذه الشخصية المثيرة للجدل.

الحسن بن الصباح (ت ٥١٨هـ / ١١٢٤م)؛

هو الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن الحسين بن الصباح الحميري. اختلف الرواة في تاريخ ولادته. فقال بعضهم إنه ولد سنة ٤٣٨هـ وأكد البروفسور ايفانوف أن مولد الحسن لم يكن قبل العام ٤٤٤هـ بدعوى أن ناصر خسرو الفيلسوف الإسماعيلي الكبير عندما عاد إلى بلخ سنة ٤٤٤هـ. بعد زيارته لمصر والمكوث فيها سبع سنوات، لم يكن الحسن. على الأرجح. قد ولد^(١). بعد الانشقاق الذي حدث العام ٤٨٧هـ في الدولة الفاطمية، وأدى إلى وجود جناحين: نزاري. نسبة إلى الإمام نزار، ومستعلي. نسبة إلى الإمام المستعلي. وهو الذي تمكن من الاحتفاظ بالخلافة الفاطمية في مصر. نهض الحسن. وأسس الخط النزاري في المشرق ووضع «أسس

(١) الدكتور مصطفى غالب: الثائر الحميري. دار الأندلس ببيروت ط (٢) ١٩٧٩. ص (٢٣).

العمل الفدائي في نطاق دعوته بلاد فارس وبلاد الشام، وإليه يعود الفضل في رسم السياسة العسكرية إلى جانب المبدأ العقائدي، تطبيقاً وممارسة، هو العقل المفكر والمخطط للحركة، وصاحب أقوى تنظيم عرفته الحركة الإسماعيلية في مراحلها المختلفة، هو المنظر (الإمام) والداعي والفدائي والمقاتل، يقرر، ثم ينفذ، ولم يعرف الخوف قط في حياته^(١).

والمعروف عن الحسن أنه هو فلكي رياضي من حذق المنجمين بعلوم الهيئة والأحكام، كما يصفه ابن النديم في الفهرست^(٢)، وذكره ابن الأثير بين أعلام القرن الخامس الهجري، له إسهامات في العلوم الأساسية والتطبيقية، ومن آثاره: كتاب الأشكال والمسائح، كتاب الكرة، العمل بذات الخلق، الزيج على مذهب السند والهند. أثبت فيه أوساط الكواكب.

عصر الموت

امتدت الدولة النزارية في الموت حوالي ١٦٦ عاماً، وذلك من العام ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠ ميلادية إلى العام ٦٥٤هـ/ ٢٣٥٦ م. ونجحت في «ظل القيادة الأولية لذي البأس الشديد حسن الصباح» بإقامة دولة «مستقلة خاصة بها، وسط محيط سني معاد، سيطر عليه الأتراك السلاجقة بشكل أساسي»^(٣). وقفت هذه الدولة محافظة على تماسكها في وجه عداوة المجتمع، ثم تهدأ مساعيه مطلقاً لاقتلاع جذور النزاريين الشيعة والسلالة الحاكمة على دولتهم^(٤).

بعد صمود سبع عشرة سنة في مقاومة ضاربة لجيوش هولاكو الغازية دمرت الدولة النزارية الفارسية، وأعمل في أهلها السيف، فقد أخرج «سيد الموت الثامن والأخير ورفاقه بعيداً عن الطريق» ووضعوا إلى حد السيف جميعاً على أيدي مرافقيهم من المغول، ثم وقعت مذبحه عامة للنزاريين الفرس، الذين كانوا تحت رعاية المغول... بينما دعا القائد المغولي في خراسان نزاريين قوهستان إلى تجمع وذبح بعضاً من اثني عشر ألفاً منهم وطبقاً للجويني فإن مذابح النزاريين قد نفذت وفقاً لمرسوم صدر عن مونغكة لهذا الغرض، ويقضي بالآ يبقى أحد من النزاريين على قيد الحياة^(٥). وقد أشرف الجويني بنفسه على حرق المكتبة العامرة بالكتب، لكن بعد أن أخذ المصاحف وعدداً من الكتب المختارة، وقد سلك صلاح الدين الدرب نفسه، فأباد نفائس الكتب التي حافظ عليها الفاطميون، حيث أخذ العبيد والإماء جلود هذه الكتب برسم عمل ما يلبسونه في أرجلهم، وأحرق ورقها، وبقي منها ما لم يحرق وسفت عليه الرياح التراب، فصارت تلالاً باقية تعرف بتلال

(٢) خير الله سعيد: عمل الدعاة الإسلاميين في العصر العباسي دار الحصاد دمشق ١٩٩٣ ص (٢٥١).

(٣) زهير حمدان: أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية، المجلد الأول، وزارة الثقافة دمشق ١٩٩٥ ص (٣١٣، ٣١٢).

(٤) الدكتور فرهاد دفتري: الإسماعيليون، تاريخهم وعقائدهم، ترجمة سيف الدين الضصير، دار البنابيع دمشق ١٩٩٥، ج ٣، ص (٩).

(٥) المرجع السابق، ص (٩).

(٦) المرجع السابق، ص (١٢٤).

الكتب «كما يقول المقيزي».

قبل أن نعدد النكبات التي نزلت بهم، والمذابح الجماعية وحملات الإبادة التي تعرضوا لها، دعونا نقف عند الفتوى الرهيبة، كما يصفها المؤرخ المعروف حسن الأمين، التي أصدرها الغزالي للخليفة المستظهر. أو بالأحرى للسلاجقة، لقد جاء فيها: «بناء على الأوامر الشريفة المقدسية النبوية المستظهرية بالإشارة إلى الخادم على اعتبار أن الحاجة إلى الكتاب عامة في حق الخاص والعالم... ثم يقول: «قبول التوبة من المرتد لا بد منه.. أما توبة الباطنية. أي الإسماعيليين. ففي خلاف بين العلماء» ونتابع قراءة الفتوى: «وإنما الواجب قتلهم وتطهير وجه الأرض منهم، هذا حكم الذين يحكم بكفرهم من الباطنية ولا يختص جواز قتلهم ولا وجوبه بحالة قتالهم، بل نغتلهم ونسفك دماءهم. وأما النسوان فإن نقتلهم مهما صرحن بالاعتقاد الذي هو كفر على مقتضى ما قررناه، فإن المرتدة مقتولة عندنا»^(٧).

وينقل حسن الأمين عن الدكتور محمد كامل حسين قوله في كتابه أدب مصر الفاطمية: «أقرب مثال نقدمه لذلك هو الإمام الغزالي. فقد هاجم الفاطميين في كتبه: القسطاس، والمنقذ من الضلال، والمستظهري أو الرد على الباطنية، وغيرها، ولكنه وقد على مصر في أواخر حياته، ووضع كتابه مشكاة الأنوار، متأثرا ببعض العقائد الفاطمية، ولأسيما نظريتهم في ترتيب العقول»^(٨). وقد مات الغزالي في أيام المستظهر بالله (أبو العباس: أحمد بن المقتدي بالله) الذي بويع له عند موت أبيه، وله ست عشرة سنة وشهران، وتوفي سنة اثنتي عشرة وخمسمائة وعمره اثنتان وأربعين سنة.

النكبات التي نزلت بالإسماعيليين

كثيرة هي النكبات التي تعرضوا لها، حتى وصلت إلى حد الإبادة الجماعية، وسنقف عند بعضها وقفة سريعة:

- تعرض وجود الإسماعيليين في حلب سنة ٥٠٥هـ/١١١١م: لنكبة قاسية عندما تألبت عليهم الطوائف المجاورة، وقتلوا منهم ألوفاً.
- قبض ألب أرسلان (ابن رضوان بن تتش) سنة ٥٠٧هـ/١١١٣ على أبي طاهر الصانغ وقتله، وقتل الداعي إسماعيل وأخا الحكم المنجم وأعيان الإسماعيلية. وقبض على زهاء مئتي شخص منهم، حبس بعضهم، ومنهم من أطلق سراحه. ومنهم من رمي به من أعلى القلعة، ومنهم من قتل^(٩).
- نزلت بالإسماعيلية سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م نكبة على يد بلك بن بهرام بن أرتق. حيث قبض بلك

(٧) حسن الأمين: الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي دار الغدير بيروت ١٩٩٧. ص(٢١٦).

(٨) المرجع السابق. ص(٢١٩).

(٩) هاشم عثمان الإسماعيليون بين الحقائق والأباطيل. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ١٩٩٨. ص(٢٦٤) نقلا عن ابن النديم. زبدة حلب ج٢. ص١٦٨. وعن ابن الفلانس. ذيل تاريخ دمشق ص(١٩٠).

نائب بهرام على داعي الإسماعيلية في حلب، وأمر بإخراجهم من المدينة، فباعوا ممتلكاتهم رحالهم، وخرجوا منها^(١٠).

• أمر تاج الملوك بوري سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م بقتل الإسماعيلية الذين كانوا في دمشق: فثار الأهالي وقتلوا منهم ٦٠٠٠ شخص، وتتبعوهم في أماكنهم، واستخرجوهم من مكائهم. وأقنوهم جميعاً^(١١).

• أورد ابن الأثير، في كتابه الكامل في التاريخ، أخباراً عن حملات الإبادة التي تعرض إليها الإسماعيليون:

• عندما استولى السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي على قلعة أصبهان وأخذ صاحبها أحمد بن عبد الملك بن عطاش أسيراً، فترك أسبوعاً، ثم أمر به، فشهر في جميع البلد، وسلخ جلده. فجلد حتى مات وقتل ولده، وحمل رأسيهما إلى بغداد، ولكي لاتقع زوج أحمد في يد السلطان السلجوقي ألقت بنفسها من رأس القلعة فماتت.

أخبار سنة ٥٠٠هـ

• في العام ٥٢٠هـ/١١٢٦م دخل جيش الوزير أحمد بن الفضل قرية طرز، وقتل كل من فيها.

• في العام ٥٤٩هـ/١١٥٤م هجم محمد بن أنز وجماعته على ٧٠٠٠ شخص من الإسماعيليين المتجهين من قهستان إلى خراسان، فلم يسلم منهم إلا القليل.

• في العام ٥٥٢هـ/١١٥٤م أغار رستم بن علي بعسكره على الموت، فأحرق القرى والسواد، وقتل فأكثر، وغنم أموال الإسماعيلية. وسبى نساءهم، واسترق أبناءهم فباعهم في السوق.

وقد سار صلاح الدين الأيوبي على النهج نفسه في التعامل مع الإسماعيليين ويذكر أنه احتاط على أهل الخليفة العاضد وأولاده، بعد موته، وكانت عدة الأشراف في القصور ١٣٠ والأطفال ٧٥، فوضعهم خارج القصر، وفرق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا^(١٢).

• وفي العام ٥٦٧هـ/١١٧١م، قام صلاح الدين ببيع خزانة كتب القصر الفاطمي، وكانت من عجائب الدنيا، لا يوجد في بلاد الإسلام ما يماثلها، وكانت تحوي على مليوني كتاب (كما يقول أبو شامة في كتاب الروضتين).

• وفي العام ٥٧٢هـ/١١٧٨م، توجه صلاح الدين إلى بلد الإسماعيلية فنهبه، وخربه، وأحرقه، وحاصر قلعة مصيف، ونصب عليها المنجنيقات.

(١٠). المرجع السابق. ص (٢٦٤). نقلاً عن الذهبي: العبر في خبر من غير ج. ٤.

(١١). المرجع السابق. ص (٢٦٥). نقلاً عن أبي الفداء المختصر في أخبار البشر، ج ٣ ص (٢).

(١٢). المرجع السابق ص (٢٣٠). نقلاً عن المقرئ: المواعظ والاعتبار ج ١ ص (٤٩٦). خير الله سعيد. عمل الدعاة الإسلاميين في العصر العباسي. دار الحصاد دمشق ١٩٩٣. ص (٢٦٦، ٢٦٥).

فدائيون أم حشاشون؟

بعد أن استولى الحسن بن الصباح على قلعة الموت، فتح المدارس العسكرية والسياسية، وانتقى الدعاة، وقسم نظام الدعوة إلى قسمين: الأول للدعاية الدينية، وأصول المذهب، ويرأسه شيخ الجبل، والثاني للنظام العسكري وفق الترتيب التالي: الرفيق، اللاحق، الفدائي، المستجيب، وقد أشرف بنفسه على الوحدات الفدائية، التي كانت نخبة ممتازة من أبناء المستجيبين، دربوا أحسن تدريب، وتعلموا اللغات الأجنبية واللهجات المحلية^(١٣).

هذا التنظيم المحكم، كان مثار إعجاب السلطان ملكشاه السلجوقي، الأمر الذي كان يغضب وزيره نظام الملك، فسعى إلى الوقية بالحسن، بخاصة بعد إخفاق نظام الملك في تنظيم سجل موازنة الدولة، في حين استطاع الحسن إنجاز هذا العمل في أربعين يوماً. وهو وقت يكاد لا يذكر إمام السنتين اللتين قدرهما نظام الملك لإنجاز هذه المهمة^(١٤).

لم يهدأ نظام الملك؛ فسير الجيوش، وحاصر قلعة الموت، لذلك كلف الحسن أحد الفدائيين. (ضاهر عراني) باغتيال الوزير السلجوقي. وبالقرب من نهاوند أدركه، فقتل عليه بسكين كانت معه، ثم لوحق الفدائي وقتل (١٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٠٩٢م). على إثر ذلك فك الحصار عن القلعة^(١٥).

كان هذا أول اغتيال يقوم به الفدائيون، ثم حاول اثنان من أولاد نظام الملك أخذ الثأر لمقتل أبيهما، لكنهما سقطا على أيدي الفدائيين^(١٦).

وفي العام ٥٢٩هـ استطاع أربعة وعشرون رجلاً من الباطنية دخول خيمة الخليفة العباسي المسترشد وقتله، ثم اغتال فدائيو الموت الخليفة الراشد لمحاولته الانتقام لأبيه المسترشد. في بلاد الشام استطاع الداعية بهرام بن موسى الاستراباذي الفارسي أن يركز أقدام الإسماعيلية في ولاية دمشق، ويؤسس فرقة فدائية، تمكن بواسطتها من القضاء على الأفضل شاهنشاه سنة ٥١٥هـ، وأرسل فدائيين من فرقته إلى القاهرة سنة ٥٢٤هـ، نفذت مهمة اغتيال الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله، كما أرسل فدائياً إلى طرابلس الشام، اسمه علي البحري للانتقام من القائد الصليبي صنجل الذي قتل بالإسماعيلية، وأحرق مكتبة آل عمار في طرابلس^(١٧).

في هذه المرحلة دخل النزاريون السوريون الطور الثاني تحت حكم أعظم قادتهم. راشد الدين سنان، الذي درس الإسماعيلية وعقائد الفلاسفة، ورسائل إخوان الصفا في الموت، وكان

(١٣) المرجع السابق. ص (٢٧٣).

(١٤) المرجع السابق. ص (٢٧٤).

(١٥) سميرة بن عمو: (الموت) أو إيديولوجيا الإرهاب الفدائي. ط ٢ (١٩٩٦).

(١٦) عمل الدعاة. مرجع سابق. ص (٣١٢، ٣١٣).

(١٧) عمل الدعاة. مرجع سابق. ص (٣٢٨، ٣٢٩).

مثل الحسن الصباح قائداً ذكياً، ذا تفكير استراتيجي، استطاع إقامة الدولة الإسماعيلية في مصيف ٥٣٥ . ٦٧٠هـ.

عندما قرر صلاح الدين إخضاع الإسماعيلية العام ٥٧١هـ، حاصر إعزاز، وضيق عليها، فتجرد الفدائيون لنزاله، لكن المحاولة الأولى أخفقت في النيل منه، وفي العام ٥٧٢هـ، عاود الكرة على الإسماعيلية، فحاصر مصيف، وأرسل مع خاله تهديداً إلى سنان مقدم الإسماعيلية، فجاءه رد سنان بقصيدة منها:

إنا منحناك عمراً كي تعيش به فإن رضيت والا سوف ننزعه
لو أن عمرك حبل أنت ماسكه فسوف تعلم يوماً كيف نقطعه

ويذكر ابن خلكان (١٨٦/٥ - ١٨٧) أن صلاح الدين بعث بكتاب إلى سنان جاء فيه: اعلم يا سنان أنك وإن كنت قد أغلقت أبواب قلاعك، وأوصدت أبراج حصونك في وجهي، وأقمت الحراس، وحشدت الفدائية بالنبال والأقواس، فإنك لن تنجو من صلاح الدين الذي سيقطع رأسك^(١٨). وجاء دور الصليبيين (الفرجة) في الاغتيال، فكان ريمون الأول، كونت طرابلس الشام أول قائد صليبي يسقط العام ١١٥٢م على يد الحشاشين وفي العام ٥٨٨هـ/١١٩٢م اغتال اثنان من الفدائيين (المركز كوراد من مونتفرات، ملك القدس الفرنجي. وقد هزت هذه العملية الصليبيين، وفي العام ٦١٠هـ/١٢٣١م قتل الفدائيون السوربون ريموند، الابن الشاب لملك انطاكية، بوهموند الرابع ١١٨٧ - ١٢٣٣م^(١٩).

وكانت رواية رحلات ماركو بولو عن ممالك الشرق، التي أملاها على زميله في السحن العام ١٢٩٩م وبخاصة ما زعم أنه سمعه من بعض أهل البلاد عن شيخ الجبل وحشاشيه، الذي كان يعيش في الموت قبل ٣٠ عاماً، سبباً في انتشار خرافة الحشاشين. ويتبنى ماركو بولو اسم حشاشين، الذي يظهر بصورة مختلفة في مخطوطاته، مثل الكلمة الإيطالية الانجلوسكسونية Seax بمعنى (سكين)^(٢٠).

وحول كلمة الحشاشين دارت مناقشات وظهرت اختلافات متباينة في أصل الكلمة أو تحريفها ما بين (سكين) و(الحسنين) و(العساسين)، ويقول سلفستر دي ساسي إن الصليبيين هم الذين حرقوا هذه الكلمة، وذكرها هكذا: (assissini) أو (assessini) (heissessini) (assassini)^(٢١). ويذكر (دو ساسي) أن «السكر الناجم عن الحشيش هو مجرد نشوة وسرور هادئين،

(١٨) الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم. مرجع سابق ج ٣. ص (٩٣، ١١٤).

(١٩) فرهاد دفترى: خرافات الحشاشين. ترجمة سيف الدين القصير. دار المدى دمشق ١٩٩٦. ص (١٧٨).

(٢٠) مصطفى غالب: الناصر الحميري. دار الأندلس بيروت ١٩٧٩. ص (٦٨). «زعم جيلان Gebelin أنها مشتقة من كلمة شاهنشاه بمعنى ملك الملوك وقال آخر أنها مسخ لكلمة الحسنين أي أتباع الحسن أو عن كلمة العساسين أي الحراس (المرجع نفسه)

(٢١) خرافات الحشاشين. مرجع سابق. ص (٢٤٩).

وليس بالأخرى حدة حماسة من شأنها إشعال نار الشجاعة والمخيلة للقيام، وتنفيذ أفعال خطيرة^(٢٢).

ومع أنه بات من المعروف طبياً أن أعراض الحشيش المخدر: (احمرار العين، الخوف، الهلع، جفاف الفم، رائحة تشبه التبغ أو العلف المحترق، التهاب الجهاز التنفسي). وأضراره: (الإدمان، الكسل والخمول، الاكتئاب، صعوبة التركيز، مشاكل وضعف في الذاكرة، تلف في خلايا الرئتين والحنجرة، سرطان الرئة)^(٢٣).

ومع هذه الأعراض كلها، التي تؤدي إلى الخور والشلل (الجبين). وإيجاد إنسان ضعيف هزيل، فما زال ثم من يردد أقوال ماركو بولو عن جنة الصباح المزعومة، والرجال الذين يندفعون إلى الموت تحت تأثير الحشيش^(٢٤).

وذهب حسن الأمين إلى أن النزاريين لم يتعاطوا الحشيش المخدر. ولم يعرفوه، بل كانوا يجمعون الحشائش من الحقول والبراري. حيث كان في كل مدينة سوق خاص يسمى سوق الحشائشيين، وكانت الحشائش تجمع بالموت في جوالق، يكتب عليها اسم المرسله إليه واسم المدينة مع كلمة سوق الحشائشيين^(٢٥).

بينما تذهب سميرة بن عمو إلى أن الإسماعيليين اضطروا تحت تأثير المجاعة بسبب الهجمات المتتالية طوال ثماني سنوات على القلعة إلى اتخاذ الحشيش لهم غذاء^(٢٦).

إن دولة الموت (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م. ٦٥٤هـ ١٢٥٦م)، ودولة مصيف (٥٣٥هـ. ٦٧٠هـ) هما بنتا ذلك الزمن بتقلباته، والمحيط الذي كان يتربص بهما، ويتحين الفرصة للقضاء عليهما، وإذا كانتا قد مارسا اغتيال الأعداء بأسلوب منظم حازم، جريء، تجلى بسلوك (الضداوية)، فإن ممارسة الاغتيال لم تتوقف عليهما، فهي امتداد لشريط متسلسل، في الدولة الإسلامية، ظهر مع ظهورها، متأثراً بسلفها، ومن الدول الغابرة، غير الإسلامية أي أن مسألة الاغتيال كانت ذات أبعاد عالمية في تاريخيتها، لكنه تجلى، ضمن كل مرحلة بشكل معين، وبأسلوبها الخاص^(٢٧).

تحديد معنى الإرهاب

حتى الآن لم تنفق الدولة على تعريف شامل، محدد للإرهاب، والنداء مستمر لعقد مؤتمر دولي لوضع تعريف وتوصيف له، وتحديد معنى الكفاح الوطني من أجل التحرر والتحرير، ومع

(٢٢) مجلة الكويت. العدد ١٨١ لعام ١٩٩٨.

(٢٣) مجلة العربي. العدد ٤٩٧ لعام ٢٠٠٠. ص (١٦٧) ومجلة الثقافة العالمية. العدد ٨٣ لعام ١٩٩٧. ص (١٣٠).

(٢٤) حسن الأمين. الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي. دار الغدير بيروت ١٩٩٧. ص (٢١٠).

(٢٥) الموت. مرجع سابق. ص (٥٤).

(٢٦) عمل الدعاة. مرجع سابق. ص (٢٣٦).

(٢٧) جريدة القاهرة. العدد ١٦٧٩/١٠/٢٠٠١.

